

## الفصل الثالث

# جوانب عبد الرحمن الكواكبي

## ١ - آثار الرجل

بدأ السيد عبد الرحمن الكواكبي يرسل مقالاته في الصحف منذ مطلع شبابه كما رأينا ، وعرفنا أنه شرع في الثانية والعشرين يجرى في الجريدة الرسمية « فرات » ، باللغتين العربية والتركية ، وكانت عزيزة الجانب عظيمة المكانة ، ثم راح يكتب في جريدة « الشهاب » « فالاعتدال » . ولا شك في أنها كانت كلها في أمور البلد وفي إصلاحه ، أو في الثقافة والعلم والدين والفقهاء كما يتراءى لشاب في مثل سنه . وهذه المقالات لم تُجمع إلى اليوم ، ولم يُقَمِّ لها ناشر يعرض علينا ما كان من قلم الشاب في هذه الفترة ، لنهض لها بالتحليل ونقول كلمتنا في أسلوبها وبيانها ، أو في غرضها ومضمونها . ذلك لأنها تفرقت في خزائن الموسرين والعلماء ، ذكر الأستاذ الطباخ أنه رأى عدداً منها في خزنة الوجيه السيد أسعد العنتابي بحلب . ولا شك في أن دراستها من خلال الصحف تُعين على تفهم الخطوات الأولى لتفكير هذا الشاب وأسلوبه وكتابته خلال خمس سنين من حياته ، وترشد إلى بدء آثاره الفكرية وصيحاته الإصلاحية ، وما تبدّل منها وما تغيّر على مرّ السنين ، فالكاتب في تطوّر مستمرّ ما دام في نزعة ثورية وحماسة فكرية كما كان الكواكبي .

ولكننا فقدنا هذه النصوص الأولى فعجزنا عن بسط الرأي فيها ، ووقفنا دون دراسة التطوّر الأدبي والفكري في إنتاج هذا الكاتب ، وبلوغه المرتبة التي وصل إليها . ونحن في هذا على أسفٍ مرّ حين ننقص صفحات من نموه وتدرّجه لأننا حرّمنا من التقرب نحو الكمال في بسط أمره كما يبسط الدارسون المتعمقون أثر

الكتاب والمفكرين . والذنب في ذلك يعود إلى السلطان الغاشم الذي أراد أن يُسكت هذا اللسان وأن يحرم الفكر آثاره وثماره في الشباب ، فأتلفها وسرقها . وقد قضى الرجل قرابة عشرين عاماً بعد ذلك تقرب فيها نحو الأربعين من عمره لم تقف له خلالها مقالة ولا رسالة منذ وقف عن النشر في الصحف الخليّة ، فقد حسب الناس أنه انصرف إلى العمل والإدارة ، وتعلّق بالمنصب والوظيفة سعياً وراء إصلاح ما بين يديه من أمور وما تحت حكمه من موظفين ، ولعله أرسل في صحف مصر أو بيروت مقالات مغفلة من توقيعه نشرت آنذاك في غيبة عن الرقيب والسلطان ، ضاعت ولم تصل إلينا ، ولم يتهدنا دارس إلى موضعها ، فجهلنا مكانها من الفكر والأدب كذلك .

ولكننا عرفنا من قول المؤرخ الأستاذ كامل الغزى ، وكان مرافقاً له وصديقاً حميماً ودوداً ، أن السيد الكواكبي أطلعه مراراً قبل أن يهجر الشام إلى مصر على كتابه « جمعية أم القرى » وأن صديقه الغزى كان يعرف أن الكتاب جدير بالنشر وأنه يلحق بصاحبه الأذى إذا ما نشر ؛ لذلك خاف عليه أن يطبعه في مصر لما وقف عليه من آرائه وكلامه . ثم يضيف المؤرخ الغزى <sup>(١)</sup> أن صاحبه الكواكبي ما نزل أرض مصر ١٨٩٩ م حتى نشر مقالات متفرقة لكتابه « طبائع الاستبداد » فقد وصلت إلى العالم العربي بعد بضعة عشر يوماً من وصوله . وذكر الغزى أنه لم يطلعه على هذا الكتاب مطلقاً بخلاف الكتاب السابق .

وهذا يدلنا على أن الكواكبي ألف الكتابين في حلب ، وأن عقله كان يتمخض بهما خلال السنوات الأخيرة من مقامه بهذه المدينة قبل براحه إلى مصر ، فلا شك في أنه كتبهما بعد أن بلغ الأربعين من عمره مستعياً بما كان يقرأ في الصحافة التركية ، وفي الكتب التركية التي كانت تصل إلى حلب <sup>(٢)</sup>

(١) الغزى ، مجلة « الحديث » ١٩٢٩ ، ص ٦ .

(٢) يقول صاحب « المنار » في مجلته ١٩٠٢/٥٤٢٧٩ : « فقد كان يقرأ الجرائد التركية

والمصرية حتى المنوعة التي كانت تدخل إلى حلب كثيرها برسائيل خفية . »

خفية فيما كان يصل من الزوار ، ولعلته حمله فيما حمل معه من إستانبول حين زارها حوالي سنة ١٨٩٢ للميلاد .

والكتابان « جمعية أم القرى » و « طبائع الاستبداد » بلغا إلينا وحدهما في جملة آثاره بعد أن عمل فيهما صاحبهما يد التعديل والتنقيح فنستطيع أن نقول فيهما وأن نبسط أثرهما وخطرها ، فقد نشرا في مصر حوالي سنة ١٩٠٠ للميلاد .

### (١) طبائع الاستبداد :

ما كاد الكواكبي يصل إلى مصر حتى وقع في نفوس إخوانه موقفاً حسناً فالتفتوا حوله ، وتحلقوا يستمعون إليه يقصّ عليهم من أخبار الشام وعيش الناس فيها من جور واستبداد وضيق . فارتبط بهم بروابط الود والصدقة حتى إذا عرفه صديقه الشيخ رشيد رضا صاحب « المنار » بالأستاذ الشيخ علي يوسف تمكنت بين الرجلين أواصر الحب والتقدير ، واتفقا من غير شك على خطة في النشر والتحرير . وفي ذات يوم صدرت « المؤيد » تحمل إلى قرائها فصولاً غربية في اللهجة والأسلوب والموضوع ، لم يسبق لصحيفة عربية أن تطرقت إلى مثلها ، فقد كانت مشبعة بالصراحة والحرية والجرأة ، تحوم حول الاستبداد . فلفت الأنظار وتساءل القراء عن صاحب هذه المقالات تصدر في جريدة « المؤيد » ، على رغم اتصافها الشديد بالخدو عباس الثاني وبالآستانة ، ويقولون تُرى من يكون صاحب طبائع الاستبداد ؟ « واعتقد الجمهور لأول وهلة أنه من نتاج قلم وتفكير فقيه الشرق الشيخ محمد عبده لولا الجفاء الذي كان مستحكماً بين صاحب المؤيد وبينه »<sup>(١)</sup> . فلما عرفوا أن صاحبه عبد الرحمن الكواكبي وضعوه في الدرجة الأولى من رجال الفكر والقلم وأنزلوه منزله وأعلوا قدره .

فا هي أبحاث الكتاب ، وما خطر فصوله ؟

لم نستطع أن نحصل على مجموعة جريدة « المؤيد » لذلك العهد فنحن

(١) إبراهيم النجار ، « الحديث » ١٩٤٠ ، ٦/١٤ .

لا تتمكن من إبداء الرأى فى هذه المقالات وطريقة عرضها فى الجريدة لأول مرة ولن نقول فى أسلوبها هناك وتنقيحها بعد ذلك أو اختلافها وإضافاتها عما نُشر منها بعد ذلك فى هذا الكتاب . فنحن قد وقعنا على طبعة منها متأخرة<sup>(١)</sup> عملت فيها يد التحريف والتصحيح ، فوقعت فيها أخطاء لم ترد فى الأصل على قلم كاتبها ، لأنها صريحة فى الخطأ بينه فى ذلك ، ولا شك فى أن الطبعة الأولى لها قد نفذت أو هى فى حكم النادرة ، فلا سبيل لنا إلى تحليل الكتاب إلا من هذه الطبعة .

جاء عنوان الكتاب : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، وهى كلمات حقّ وصيحة فى واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد ، محررها هو الرحالة ك » . وقد بسط الرجل فى فاتحتها قوله : « وبعد ، فأقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان ، الراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عنى قال : إننى فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة وألف<sup>(٢)</sup> ، وجدت زائراً فى مصر على عهد عزيزها ومعزّها حضرة سمي عمّ النبيّ العباس الثانى الناشر لواء الحرية على أكتاف ملكه ، فنشرت فى بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمؤرّدِ الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبرون على الأغيار ولا على الأقدار ، وعسى الذين فيهم رفق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات . ثمّ كلفنى بعض الأعداء بجمع شمل تلك الأبحاث تعميماً للفائدة ، فأضفت إليها بعض زيادات وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب » .

وهكذا يعترف المؤلف أنه زاد فى الكتاب عما نشره فى الجريدة ولعلّه غير

(١) طبعة « المكتبة التجارية » لصاحبها مصطفى محمد ، ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م .

فى ١٣٦ صفحة .

(٢) أى سنة ١٩٠٠ للميلاد .

وبدّل متأثراً بما ورد إليه من نقد أو ملاحظة أو ما تقتضيه الظروف . واعترف كذلك أنه أخذها عن مصادر درسها وأخرى اقتبس منها . أما المصادر فقد بسط في المقدمة أمرها فقال إنه لا يعرف للأقدمين كتباً مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين . وقال : إن لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية مثل كلية ودمنة ورسائل غريغوريوس اليوناني ، ومحركات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج . وفي القرون المتوسطة لا تؤثر مؤلفات في هذا الفن لغير علماء الإسلام ، فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي ، والطوسي ، والغزالي ، والعلائي ، وهي طريقة الفرس ، ومزجوا بالأدب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب ، ومزجوا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة . ثم ذكر أن المتأخرين من أهل أوربة توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيراً ، وأن من الترك كثيرين ألفوا في أكثر مباحثه تأليف مستقلة ومزوجة مثل أحمد جودت باشا ، وكمال بك ، وسليمان باشا ، وحسن فهمي باشا . وأمّا العرب فقليلون ومقلّون والذين يستحقون الذكر— فيما يرى منهم— رفاة بك وخير الدين باشا التونسي ، وأحمد فارس ، وسليم البستاني ، والمبعوث المدني<sup>(١)</sup> .

ولاشك في أن هذه الكتب هي جملة ما رجع إليه الكواكبي حين تأليفه ذكر منها ما ذكر ، ولكنه لم يرشدنا إلى كل الكتب الغربية التي عكف عليها واقتبس منها ، حتى تاه معاصروه فنسبوا بعض الآراء إلى جان جاك روسو ، وبعضهم نسبها إلى مؤلف إيطالي مجهول . وقد ذكر في كتابه « طبائع الاستبداد » جملة نسبها إلى « ألفياري<sup>(٢)</sup> » وترجمها بنصّها ، مما دفع إلى الاعتقاد بأن الكتاب مأخوذ من هذا الكتاب الغربي . وذكر الأستاذ أحمد أمين<sup>(٣)</sup> في دراسته للكواكبي أنه اقتبس كثيراً من أقوال ألفياري « Victor Alfieri » وهو كاتب

(١) انظر « طبائع الاستبداد » ، ص ٤ .

(٢) انظر الكتاب نفسه ، ص ١٣١ .

(٣) « زعماء الإصلاح » ص ٢٥٨ .

إيطالي وشاعر مشهور عاش من سنة ( ١٧٤٩ - ١٨٠٣ ) ، ونشأ في بيت نبيل ، وساح في أروبة نحو سبع سنوات وألف كتباً كثيرة عن ماري ستيوارت وميروب ، ودرس كتب فولتير وروسو ومنتسكيو ، وتشبّع بأرائهم الحرة ، وتعشق الحرية وكره الاستعباد أشد الكره . وتساءل الأستاذ أحمد أمين من أين وصلت إليه هذه الأقوال ؟ وذلك لأنه يعلم أن الكواكبي لم يتقن لغة أوربية . ونحن نرى جواباً عن ذلك أن أحرار الأتراك كانوا يترجمون وهم في عواصم الغرب كثيراً من هذه الكتب ، ولعل نسخة منها بلغت إلى الكواكبي خفية في حلب . بل لعل الإيطاليين وكانوا على صلة بالسيد الكواكبي ، في حلب ، وفي اليمن ، وفي غيرها - مما رأيناه في ترجمته - قد وضعوا الكتاب بين يديه ، وفيهم قناصل فخريون يتقنون العربية فترجموها له سعياً في خدمة الكواكبي أو إثارةً للشعوب العربية آنذاك .

وكيفما كان الأمر ، فالكتاب ليس اقتباساً من الإيطالية كله وليس جمعاً من مصادر عربية وحدها (١) ، وإنما هو مجموعة مقالات وفصول أخذت من كل مصدر بنصيب ؛ من القرآن ، والحديث ، وأمثال العرب ، والكتب التاريخية العربية والمترجمة ، أضاف إليها كاتبها ما خبر من حال الشعوب الإسلامية ، فأعمل فيها الفكر وأشرك فيها العقل والعاطفة فجاءت في أساليب مختلفة ترتفع طوراً إلى ذروة البيان وتنخفض طوراً إلى درجة المقالة العادية السطحية ؛ ذلك لأن الرجل أول من كتب كتاباً بالعربية في هذا الشكل ، وأول من حتر موضوعاً متصل الحلقات بهذا الأسلوب من الإنشاء ، وهجر السجع ، وأنكر التمثل بالشعر في كل صفحة ، أو تضمين الآيات بكل مناسبة ، فكان باكورة في الإنتاج . ولذلك يحمد كل الحمد إذا قورن بعصره وزمانه وثقافته أهله وأقرانه ، خاصة إذا ذكرنا ما كان للإرهاب والتهديد والضغط والإكراه من أثر في الكتابة

(١) يقول رشيد رضا في « المنار » ٢٧٩/١٩٠٢ : « إن ينبوع علم هذا الرجل صدره وإنه كان يزداد في كل يوم فيضاً وتفكيراً » .

أنداك في المواضيع العامة التي تمس الحياة الاجتماعية أو السياسية ، فكيف إذا كان الكتاب يمس الاستبداد من قريب ويدور حول الاستعباد ، ويصف الدواء لمناهضته له والطرق لتحطيمه ، وتوحيد قوى الشعب في سبيل ذلك .

وهو في مقدمة وثمانية فصول ، بسط في المقدمة مصادره ، وعرف الاستبداد كتوثئة لبحوثه ، ثم راح يكتب في الفصول على التوالي .

### ١ - تكلم في الفصل الأول عن الاستبداد والدين ورد قول الفرنجة الذين

زعموا أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني ، فأثبت أن الكتب السماوية تدعو إلى خشية قوة عظيمة هائلة ، وأن هذه الدعوة جرّت عوام البشر إلى التباس الإله المعبود والحبار واختلاطهما في مضائق أذهانهم ، من حيث استحقاق التعظيم والرفعة ، فضلّ الناس في هذا الزعم ، ولكن العلماء نبّهوا بعد ذلك إلى هذا الضلال . فالإسلام هدم الشرك وأحكم قواعد الحرية السياسية ، وأعطى الناس حكومة الخلفاء الراشدين ومن تشبه بهم . والقرآن نفسه مشحون بتعاليم تقتل الاستبداد وفيه الآيات البيّنات على لسان بلقيس ملكة سبأ ، أو قصة موسى أو خطاب فرعون ، وكلها تدعو إلى مجالس الشورى « وشاورهم في الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » وقال : إنه لا يوجد في الإسلام نفوذ ديني في غير مسائل إقامة الدين . ولكن المسلمين أخذوا مما ليس في دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء على العمياء ، وحاكوا مظاهر القديسين وعجائبهم والدعاة المبشرين وصبرهم ، وقتلوا رجال الكهنوت في مراتبهم وتميزهم في ألبسهم وشعورهم . ويرى الكواكبي أن هذه المقتبسات هي أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد ، وهي التي أفسدت الأديان وأشقت الإنسان ، وأبعدته عن جوهر القرآن وعظمة ما فيه من معجزة وإعجاز .

### ٢ - وتكلم في الفصل الثاني عن الاستبداد والعلم فرأى أن سبب الاستعباد

هو الجهل في الرعية . والمستبد لا يخشى علوم اللغة أو علوم الدين ، ولكنه ترتعد فرائضه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق

الأمم ، فهو يخشى العلوم التي توسع العقول وتعرف الإنسان ما هو الإنسان وما هي حقوقه . ويكره المستبد أن يرى وجه عالم ذكى ، فإذا اضطر إليه اختار المتصاغر التملق ، فينبى الاستبداد والعلم حرب دائمة ، يسعى العلم فى نشر الحرية ويسعى المستبد فى إطفائها ، وكلاهما يتجاذبان العوام إلى طرفهما . فالعوام هم قوت المستبد وقوته ، إذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شىء ، ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حتمية الحرية والعزة والأشرف ، فلا سبيل إلى العبودية والاستبداد وما انتشر نور العلم إلا تكسرت قيود الأسر .

### ٣ - وفى الفصل الثالث يتحدث عن الاستبداد والمجد ويريد بالمجد إحراز

المرء مقام حب واحترام فى القلوب ، ولكن الاستبداد يغالب المجد ويقيم مكانه التمجيد . والمجد أمر طبيعى تتوق إليه النفوس وتحن إليه أعناق النبلاء ، فى السعى إلى الرفعة والنبلى . ولكن التمجيد هو القرب من المستبد بوسام أو تشرف بلقب أو منصب ؛ والمتمجدون أعداء للعدل أنصار للجور يترامون على أرجل المستبد ويتخذهم بلحماً لتذليل الرعية ، وهم أعوانه يشاركونه فى استبداده لقاء انتفاعهم منه ، فهم العصابة التى تُعينه على ظلم الرعية ، منهم الوزراء والموظفون والقواد والعمال ، فهم يشاركونه فى امتصاص دم الأمة بأخذهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة . فالمستبد فرد عاجز لا قوة له ولا حول إلا بهؤلاء المتمجدين ، فلا يخلص الأمة الأسيرة إلا العقلاء الأبرار الذين يشترون السعادة بشقايتهم والحياة بموتهم .

### ٤ - وفى الفصل الرابع يتكلم عن الاستبداد والمال فينظر إلى الحيوان أولاً

ليقرر أنه يلتمس رزقه من مورد طبيعى وأن الإنسان يلتمسه عند أخيه ، فهو يأكل لحم الإنسان منذ دهر طويل حتى حرّم الحكماء والأنبياء ذلك عليه وعوضوا عنه بالقربان من الحيوان ، ولكن الاستبداد أحياناً أكل البشر

فجعل الأقسام طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين . وتمتّع رجال السياسة والأديان بنصف ما يكسب البشر يُنفقونه في الإسراف والرفاهية ، فيزينون الدنيا بملابيح المصاييح لمرورهم مثلاً ولا يفكرون بالفقراء الذين يبيتون في الظلام ، ويعيش التجار الشَّرهون والمحتكرون في إسراف مما يعيش به سائر الشعب والبرية ، ففتفتاوت الأقوات بسبب الاستبداد السياسي ويعبد الإنسان المال والجمال فيجئح إلى الادخار ويطبع على التمول ويحرم الآخرين الرزق . ولهذا قامت جمعيات تسعى للتساوى والتقارب بين أفراد البشر لتمحو عار الاستبداد المالى وتقضى على الاحتكار ومزاحمة الضعفاء . وقام لهم المستبدون الظالمون فسئوا القوانين لحماية احتكارهم ، وكان من ذلك اختلال في الملكية فأصبح أناسٌ يملكون الأراضى الواسعة وعاشت طبقة لا تجد أرضاً تنام عليها ، فإذا لم تستدرك حكومات الشرق هذا الخلل بقانون تسنّه زاد الفقر وطفى المحتكرون وفسدت الأخلاق وعمّ الاستعمار ، وبغى الغنى على الفقير ، واشترى ضميره ، وسخره لأمره ، وجعله مستعبداً له ، وسلبه أعزّ ما لديه . وهذا الاستبداد مجلبةٌ للبلاء يخيف الفقراء كما يخاف البغاث من العقاب فلا يفكرون ولا يجرون على طلب الحرية . لذلك يجب على الحكومات أن لا تسمح بتجاوز مقدار من الكسب والملكية تستبد بهما طبقة وتفترق إليهما طبقة ، فينتشر السؤال وتذل النفوس ، ويشقى الناس بسيطرة الأغنياء على كلِّ المقدسات .

٥ - وفي الفصل الخامس يتحدث عن الاستبداد والأخلاق : فيرى أن

الاستبداد يفسد الأخلاق ويسوق إلى الحقد ويضعف حبّ الوطن لأن الفرد يجد أنه غير آمن على الاستقرار يودّ لو انتقل من وطنه ، ويضعف حبّ الأسرة لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها . وأسير الاستبداد لا يملك شيئاً يحرص على حفظه لأنه يملك مالاّ معرضاً للسلب وشرفاً معرضاً للإهانة ، فلا يدوق لذة نعيم غير نعيم اللذات البيمية فيحرص عليها . وهنا تمرض العقول ويختل الشعور ويرى الناس في المستبد مظاهر الأبّهة فتبهر أبصارهم ويتحدثون عن

تضخيمه وتعظيمه ، ويدلون له ، وينصاعون كما ينصاع الغنم بين أيدي الجزار فتجرى إلى حفنها ، أو كمثل الهوام تترامى على النار . وكم تلاعب القياصرة والملوك في قلب الحقائق فعبثوا بالأديان وسخروها لخدمتهم ، وُخدع بهم المؤرخون فسمّوهم فاتحين وغالبين وعظماء فجاروهم في استبدادهم . والحق أن المستبدين يعلمون الناس الانقياد عن خوف وجبن ، والتوقير عن كراهية وبغض ، ويقبلون الفسق والفسجور عن فقر وعجز فيخفونها عن الأعين فحسب . وفي ظل الاستبداد يألف الناس النفاق والرياء فيفقدون الثقة في أنفسهم وفي غيرهم ، ويجدون في الأجنبي ميزة لا يجدونها عند أبناء جلدتهم ، فينظرون إليه في ثقة واعتماد ويأمنون له ، ولذلك عمل الأنبياء على إنقاذ الأمم من شقاؤها بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه . وتبعهم في ذلك الحكماء السياسيون الأقدمون فحرروا الضمائر ، ولم يبالوا بغوغاء الأغبياء . والشرقيون بعيدون في حاضرهم عن الجذ والعزم يرتاحون للهو والهزل ، يسكنون بهما آلام النفس ، ويُخلدون إلى الحمول والتسفل طلباً لراحة الفكر ، يتواكلون ويدعون ويطالبون بالوظائف وما داموا كذلك فلينظروا ما حاق بالأمم المنقرضة ولينظروا مصيراً كصيرهم .

٦ - وفي الفصل السادس يتكلم عن الاستبداد والتريبة فيقول : إن الاستبداد

يؤثر في الأجسام فيسقمها وفي الأخلاق فيفسدها ، فهو يهدم ما تبنى التربية ، ولكنه يُبقي على التدين الذي يُقنع بعبارات مجردة لا تنتهي عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الإخلاص فيها ، فقد ألفت النفوس أن تلجأ إلى الكذب والرياء والخداع والنفاق في ظل الاستبداد فلا تأنف بعد ذلك من أن تستعمل هذه الطباع مع الربّ والأب والأم والقوم والجنس حتى مع النفس . والحكومات العادلة تُعنى بالنسل في زواجه وأولاده ومعايشه وآدابه ، فيعيش النسل سعيداً بعمله ينعم بالرزق، ولكن الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتُميت الآمال، لذلك يتعزى أسرى الاستبداد بالدين، يعالون النفس بسعادة أخروية ويسلوونها بمشبطات تهوّن من حياتهم الدليلة ، فلا يتلذذون بما يملكون، ويهون أولادهم عبيداً للسلطة

لأنهم يائسون من إصلاحهم في ظل الأسر ، لا يجدون صحة ولا علماً ولا غذاء ، وإنما يأفنون الشقاء والتضييق والفقر ويرضعونه أبناءهم بعدهم ، فتحنط الأمة إلى الأبد .

٧ - وفي الفصل السابع يتحدث عن الاستبداد والترقي فيقول: إن الترقى

يكون في الصحة والقوة والعلم والمال ، والإنسان يترقى ما لم يعترضه مانع يسلب إرادته كالعجز أو الاستبداد . فالاستبداد يسير بالإنسان إلى الانحطاط والتأخر والفتناء ، فيشعر على الزمان بأنه كالحیوان لا يهيمه غير حفظ حياته الحيوانية ، فعلى قادة الأمم أن يسعوا إلى رفع الضغط عن العقول لتنتقل في سبيلها نحو النمو وتمزق حجب الأوهام ، وأن يُقنعوا الناس بأنهم خلَقوا لغير الذلة والمسكنة ، وأن يحركوا قلوبهم بخطابات مثيرة ، تدفعهم إلى اليقظة والنور وترفع عنهم ستر التأخر ، فالأمم قد سبقتهم ألوف المراحل ، وأن التقلب على فراش البأس ووسادة البأس مضرّ بالهمم ، وأن ينهوهم إلى أنهم يملكون رؤساء كغيرهم وقلوباً كسواهم من الأمم فيجب أن يثقوا بأنفسهم وأن لا يُوكّلوا غيرهم عليهم . فالاستمتعون ينسلون من كل جانب ليسلبوا الأموال ويُزاحموا المواطنين على أراضيهم وليتحيكّلوا على تدليلهم فإذا تقظت الأمة سدّت الأبواب في وجه الطامعين . ويرسم الكواكبي خطباً مثالية في إثارة الشعور وإيقاظ الهمم وهداية أبناء الشعب وإبعادهم عن العبودية والذلّ والسجود أمام المتعنين . ويتلفت إلى المسلمين بأحاديث تُنكر الظلم ، ثم إلى العرب كافة من غير المسلمين يحثهم على الاستنارة بالعلم والاتحاد الوطني والوفاق الجنسي دون المذهبي لعلهم يترقون فيصطدم الأجنبي بجدار ترقبيهم وعلمهم ، ولا يطمع في الاستيلاء عليهم . ثم يقول : إن الاستعمار الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن كونه تاجراً ليستمتع بوسائل الشرق وغناه لا يخدم العلم فيه . وهما هم أولاء الهولانديون في الهند وجزائرها ، والفرنسيون في الجزائر لم يسمحوا لأهلها بحريّة تقرأ ، والإنكليزي يفضل قديده بلادته وملك بحاره على طرى لحمنا وسكتنا . ويتوجه الكواكبي إلى الغرب فيحذّره من ظلمه

للشرق وبذكوره بفضل الشرق عليه ، ويكيلُ اللومَ للشرق على تواضعه وتصاغره وتملقه . فقد كناه ما لقي في سبيل ذلك كلبه . فالاستبداد كما يقول يبلغُ في الانحطاط بالأمة إلى الموت . والحكومات العادلة يجب أن تمهد العيش للإنسان كما وعدت الأديانُ لأهل السعادة في الجنان ، لكي يعيش الفرد أميناً على سلامته في جسمه وحياته ، أميناً على ملذاته الفكرية والجسمية ، أميناً على حريته ونفوذه وماله وملكه ، وشرفه ، فيعتبر الإنسان نفسه عضواً حقيقياً من جسم الأمة ، فيفتدى أمته بماله وروحه ، وينتظم أمرُ الأفراد في الأمة ويكونون سداً في وجه الاستبداد حين يعتقدون أن لا قوة فوق الشرع ولا نفوذ لغير الشرع ، فالشرع حبل الله المتين ، وحينئذ لا يعتدى بعض على بعض ولا يتعدى أحد على حدود غيره ، تسهر الأمة على مراقبة سير حكومتها لا تغفل ولا تتسامح كما أن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون .

٨ - وفي الفصل الثامن ، يتحدث عن الاستبداد والتخلص منه فيستقرى التاريخ ليستنتج منه أن الإنسان عاش دهرًا طويلاً يسوسه الأقوياء والأذكياء على أنظمة مختلفة في قواعد رائدها العدالة الوجدانية أو النظام التقليدي . وأكثرُ الناس لم يهتد إلى طريق مثالي في الحكم ، لأن مشكلة الحكم أقدم مشاكل البشر ، والغريون جالوا في هذا السبيل وقرروا مسائل كثيرة ما تزال في أخذ ورد عند التطبيق . وي طرح على بساط البحث بعضاً من المباحث يدعو إلى تدقيقها . فيسأل ما هي الأمة والحكومة والحقوق العمومية والتساوي فيها والحقوق الشخصية ، وما هو الأصلح للحكم : أهو المطلق أم المقيد؟ وما هي وظائف الحكومة وحقوقها وطاعة الأمة لها ، وتوزيع الضرائب ، والإعداد للدفاع ، ومراقبة الحكومة ، ورعاية الأمن ، وحفظ السلطة في القانون ، وتأمين العدالة القضائية وحفظ الدين والآداب . وكيف توضع القوانين وتوزع الوظائف والأعمال ، أمي برأي الحاكم أم برأي الأمة . وكيف يفرق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم . وكيف يعمم التعليم ويتوسع في الزراعة والصناعة

والتجارة . وكيف يكون رفع الاستبداد ونبيل الحرية فيوجد أنه على خمسة وعشرين أسلوباً<sup>(١)</sup> ، يقول إنها تحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل ، وهي كلها تتعلق بالحقوق الإدارية لا يقف عندها وإنما يخص كلامه برفع الاستبداد ، فيرى أن الأمة التي لا يشعر أفرادها بالآلام الاستبداد لا تستحق الحرية . والاستبداد لا يقاوم بالشدة . وينقل قول ألفياري : « لا يفرحنّ المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياظه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير » . فهو يرى أن الضعيف قد يتخذل المستبد الكبير ولا يكون ذلك إلا بالتعليم وإقناع الرأي العام ، والثبات . وإزالة المستبد طرق بشير إليها المؤلف ويستعرض الحالات الصعبة في إزالته ، ويعتقد أن رئيس وزارة المستبد ورئيس قواده أو رئيس الدين عنده هم أقدر الناس على الإيقاع به ، وهو يداريهم تحذراً ، وإذا أراد إسقاط أحدهم يوقعه بغتة . ثم يشير إلى ترتيب المقاومة والاستعداد الفكري وتعميمه وذلك بإشعار الأمة بالآلام الاستبداد ، ودفعها إلى أن تحكم نفسها بنفسها وبذلك يتم السير الطبيعي لسنة الكون .



وهنا ينتهي الكتاب ، وقد عالج فيه كاتبه أنواع الاستبداد وطرقه وسبل التخلص منه ، وبسط أسباب وجوده في الأمة ، فنقل نظريات الغربيين والمشاركة في تعريف الحرية واعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ، وما عرفه الرجل خلال دراساته . وقد أخذ عليه أنه نظري فحسب لم يدعم كتابه بمشاهداته وهي كثيرة ، فلم يبسط فيه حال بلاده الشام ، ولم يضرب الأمثلة صريحة عن العثمانيين وتسلطهم على العالم العربي ولم يتطرق إلى الأشخاص . ولعل ذلك لغاية واحدة هي سيرورة الأفكار في الناس من غير أن يصطدم بالمدعوعين والمحبين للدولة

(١) يقول رشيد رضا في « المنار » ١٠٦/٢٩٠١ : « وهذا الفصل الأخير وما فيه لم ينشر في المؤيد » ثم يضيف : « وزوج من مؤلفه أن يكتب لنا كتاباً آخر في المباحث التي وضعها تذكرة للكتاب فلا يرفيها حقها غيره » .

العلية العثمانية آنذاك ، وكان بعضهم يرى في الدولة العثمانية حامية لشعار الإسلام ، وموضعاً لحماية الدين والجماعة المحمدية . وقد اضطر صاحبه إلى حذف فصل وإضافة فصل وتعديل الكتاب قبل طبعه ، ومع ذلك لم يجد طابعاً ينشره جملةً ، حتى جاء رجل سوري الأصل مصري الوطن<sup>(١)</sup> فاعتنى بنشره ، وجعله موقعاً برمز الرحالة « ك » ، وذلك في أرض الكنانة لأواخر القرن التاسع عشر على ما كانت عليه النهضة والحرية آنذاك بالنسبة إلى بلاد الشام . وقد علمنا مع ذلك أن السلطان أرسل مبعوثيه لجمع نسخه وإتلافها لئلا يشيع هذا الفكر الخطر على استبداده ، وقد حرّم دخوله إلى الأراضي التي كانت تحت إشراف زبانيته ، فقد كان الكتاب على جرأة نادرة حين يُطالب بالحرية وقلع الاستعباد ، وخلق مدينة فاضلة وجمهورية مثالية كجمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي ، رسم لها الأصول والطرق ، وبسط طريقة العيش بين الأفراد وصلّتهم بالحكام ، في ديمقراطية لم تحققها إلى اليوم جمهورية في العالم على الشكل الذي أراده وتخيّلته . لذلك كان في نظر الكثيرين — كما قلنا — خيالياً بعيداً عن الواقع ، يستمدّ آراءه من الإنسانية الكاملة والأخلاق الفاضلة والأحكام العادلة ، فكأنه يتحدث عن أحلام وأمان لا يمكن أن تتحقق لعصره وزمانه ، ولكنه فيلسوف يرسم الطريق لقومه ويعبد السبيل لأمته ، فهو مشعل ينير ومنازة تهدي وعقل منظم ، قد سكب آراءه المشرقة وأفكاره العميقة في هذا الكتاب الصغير ، الذي يصلح دستوراً ونظاماً وقانوناً يسير على هديها كل من دخل ميادين الاجتماع والسياسة والفكر ، فهو في كتابه رسم السياسة لأمته بصدق وإخلاص ، يفوق ما رسم الوزير المغربي<sup>(٢)</sup> في الشرق ، وما كتب ما كياقيلي في الغرب ، بل إنه خلاصة

(١) في مجلة « الحديث » ٦٥٣/١٩٣٧ محمد لطفي جمعة : « ولم يجد هذا الكتاب أحدًا يعتنى بنشره سوى رجل فاضل سوري الأصل مصري الوطن اسمه إبراهيم فارس صاحب مكتبة الشرق »  
 (٢) ألف الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ هـ ، كتاباً في السياسة نشرناه بدمشق ١٩٤٨ ، وقد فانس فيه ابن سينا والفارابي .

لما قيل من آراء عند الغربيين قريب الشبه بكتب مونتسكيو وروسو وخاصة في «العقد الاجتماعي»<sup>(١)</sup> (كونتراسوسيال : Contrat Social) .

ولعله في كتابه تخيل الحكم الصالح لعهد عمر بن الخطاب وجرى على مثال بعض الخلفاء الراشدين في سنن الإدارة والعدالة فجعل الشعب سيّداً والحكام أجراً قد استعملهم الناس لخير حياتهم وسعادة عيشهم ليس غير . ولا شك في أنه فهم هذه البحوث التي قرأها على العرب وضمها واستساغها ، وسببها بقالبه وأسلوبه ، وهي بحوث حقوقية علمية اجتماعية يكتبها رجل لم يدرس الحقوق في جامعة ولم يتعلم الاجتماع في مدرسة ، ولكنه على كل حال استطاع أن يقدم ذلك لقرائه كأستاذ وعالم ومفكر بعربية سليمة وكتاب متنسق الفصول حسن التبويب ، لم يؤلف مثله بعد ابن خلدون في معالجة مشاكل الشرق في ضوء ما يصنع الغرب وما يكتبه من أمثال مونتسكيو وروسو وألفياري ، في محيط مظلم حرمت عليه أمثال هذه البحوث وقراءاتها وكتاباتها والاستماع إليها لأنها تمس نظام الحكم وتُصيب من الحكام العثمانيين مقتلاً ، فتنبه النيام وتوقظ الغافلين ، وتفعل في النفوس الشرقية فعل النار في الهشيم !

وقد نشر ابنه الدكتور محمد أسعد الكواكبي فصولاً<sup>(٢)</sup> لم تقع في طبعة الكتاب ذكّر أنها من إضافات والده ، وأنها كانت على أن تنشر في طبعة منقحة ، ولكن المنية عاجلته دون تحقيق هذه الأمنية . وما تزال هذه الفصول مخطوطة لم تُطبع كلها ، وهي لا شك تُضيف إلى ما نعرف عن الكواكبي وآرائه معلومات جديدة يحسن أن تجمع وأن تنشر نشرًا علميًا مع بسط صور لخط الرجل ومسودته وتنقيحاته ، كما يفعل الغربيون حين يعرضون للدراسة عالم من علماءهم ، وعسى أن يقوم أحد العلماء بهذا فيسد ثغرة ما تزال مثيرة ، وعند ذلك يستطيع الباحثون أن يوفوا الرجل حقه في تفكيره وبيانه وطريقة تأليفه ودراسة آثاره دراسة موفقة كاملة .

\* \* \*

(١) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية المغفور له عادل زعير .

(٢) مجلة «الحديث» ١٩٥٢ ، ٥٥٥ - ٥٥٨ .

(ب) « أم القرى <sup>(١)</sup> » : « أى ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة

الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ هـ » .

يقول الأستاذ رشيد رضا <sup>(٢)</sup> : « ولما هاجر إلى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول إن هذه الجمعية أصلاً وإنه هو توسع في السجل ، ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيّف أى عقيب قدومه إلى مصر . وقد قال لنا مرة إن الإنسان يتجرأ أن يقول ويكتب في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد ، بل إن بلاد الحرية تولّد في الذهن من الأفكار والآراء ما لا يتولد في غيرها » .

وهكذا ينبتنا صديقه أنه ألّف الكتاب منذ زمن ونقحه وبدّل فيه وزاد عليه ، متأثراً بجوّ الحريّة التي لقيها في مصر . وبخبرنا صديقه الشيخ كامل الغزّي أنه أطلعه على الكتاب قبل رحيله إلى مصر <sup>(٣)</sup> . ويقول عن كتاب « جمعية أم القرى » : « فقد أطلعنا عليه مراراً » .

فالكتاب ألّف في حلب وبيّضه ابنه الدكتور محمد أسعد ، ولكنه نقّحه في مصر مراراً ، ونشره فيها سنة ١٩٠٠ ، ثمّ نشره الأستاذ رشيد رضا في « المنار » سنة ١٩٠٢ ، وقال <sup>(٤)</sup> : « ولكن في القسم السياسي كلاماً لبعض أعضاء الجمعية في الدولة العلية - أيدها الله تعالى - نَحذفه عند الوصول إليه ، لأنه لا يؤلم أكثر الناس ، ولا ينبغي أن يعرفه إلا الخواص » ، وعن « المنار » نشر في الناس كذلك ، ولكن طبعة « المنار » تختلف عن الطبعات الباقية بأنها حذفت

(١) طبع بعنوان « مجلّ مذاكرات جمعية أم القرى أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦ ، جامع السيد القراني كاتب الجمعية » ونشر في المجلد الخامس من مجلة « المنار » الإسلامية بمصر ١٣٢٠ ؛ وطبع كذلك على نفقة إبراهيم فارس ، صاحب مكتبة الشرق في مصر شارع كلوت بك .

(٢) رشيد رضا ، مجلة « المنار » ، ١٩٠٢ ، ٢٧٩/٥ .

(٣) كامل الغزّي ، مجلة « الحديث » ، ١٩٢٩ ، ٤٤٨/٦ ، نقلنا العبارة في الحديث

عن حياته قبل صفحات .

(٤) رشيد رضا ، مجلة « المنار » ، ١٩٠٢ ، ٩٥٩/٤ وما تليها .

أشياء في الدولة العثمانية ، وهي كذلك منقحة ومزيدة بدليل ما قال صاحب « المنار » فيها : « وقد وعدنا جامع الكتاب بتتقيح النسخة التي سننشرها في المنار وبإضافة زيادات إليها هدت إليها الحنكة والاختبار » .

ولهذا لا نستطيع أن نحكم على الكتاب كما خرج من قلم مؤلفه فقد تولاه الزمان بالتصحيف والتحريف بعد وفاته ، وصدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا ، أو بقلم الشيخ محمد عبده ، كما قال الأب شيخو<sup>(١)</sup> ، فقد كانا مشهورين في مصر ، ومعروفين بأسلوبهما الأدبي وبيانهما الإنساني ، قبل أن يفقد إلى مصر .

وكل الذي نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين ، وهو أسلوب الفحول لذلك العصر ، فقد اختلط على الناس كما قال المؤرخون لزمانه ، وحرار الأدباء في نسبتهم إلى أحد المشهورين ، وتخططوا في معرفة صاحبه حتى انكشف للناس اسمه ، فأعجبوا به أيما إعجاب .

هذا في بيانه وأسلوب إنشائه ، أمّا من حيث الفكرة فقد قال أحد الكتاب : « وقد أخذ فكرة الأفغانى في عقد المؤتمر الإسلامى فشرحها شرحاً مطوّلاً في كتابه الذى صدر باسم سجل "جمعية أم القرى" ، وضمن هذا الكتاب أعمال المؤتمر الذى لم يكن عقده » وهكذا كان للكواكبي أن يجعل في الطليعة ، وأن ينسجم مع كبار المفكرين المصلحين في عصره ، فهو طوراً يشبه محمد عبده ، وطوراً جمال الدين الأفغانى ، وأحياناً الشيخ رشيد رضا<sup>(٢)</sup> ، في الأسلوب وفي الفكر ،

(١) تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين « تأليف الأب لويس شيخو ، نشرت تبعاً في المشرق ٢٣/٢٨٢ ، ثم في بيروت ١٩٢٦ ، ص ١٨ : « ونظر فيه الشيخ محمد عبده » .

(٢) يقول رشيد رضا : في « المنار » ٥/٢٧٩ : « وقد كنا على وفاق معه في أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا النازى أتمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه . وربما نشير إلى المسائل التي خالفنا فيها الفقيه في هامش الكتاب عند طبعه ، وأهمها الفصل بين السلطين الدينية والسياسية » .

ومهما قيل في عون هؤلاء الكتاب للسيد الكواكبي فقد كان الرجل مبدعاً مبتكراً، بل إنه كان كاتباً اجتماعياً مثيراً وقصصياً عظيماً. فقد استطاع أن يكتب في إصلاح قومه على أسلوب قصة تخيلها ونظم فصولها ، فتصور أن جمعية من المسلمين اجتمعت في مكة في ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ وأن كل قطر إسلامي أوفد عضواً يمثله في هذه الجمعية . وأنهم اختاروا العضو المكّي رئيساً لهم — على عادة المؤتمرات في العالم اليوم — واجتمعوا قبيل الحج لتداول في أمور المسلمين يعرضون الأدوية ويصفون الأدوية ، ويشخصون الأمراض ويبسطون العلاج .

ويخيل للقارئ أن هذه القصة من نسج الخيال فحسب لكن الكواكبي يقول : « إن لها أصلاً من الحقيقة » وقوله هذا يزيد القصة روعة ، ويدعم خيالها ما يُدير فيها من حوار وما يجعل بين يديها من مقدمة .

فهو يكتفي نفسه بالفراقي ، ويقول إن بعض أفاضل العلماء والسراة<sup>(١)</sup> والكتاب السياسيين بحثوا الوسائل للنهضة الإسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم في ذلك في الجرائد الإسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية ، ويقول إنه اطلع على كثير من مقالاتهم في هذا الموضوع وإنه قلدهم فنشر ما عن له . ثم بدا له أن يعمل على توسيع هذا المسمى بعقد جمعية من سراة الإسلام في مكة مهد الهداية فعقد العزم على إجراء سياحة بزيارة أمهات البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج ، فخرج من بلدته إحدى مدن الفرات في أوائل محرم سنة ١٣١٦ هـ ، ثم سلك الطريق البحري من إسكندرونة إلى بيروت فدمشق ويافا والقدس والإسكندرية ، فحصر ، والسويس ، والحديدة ، فصنعاء ، فعُدن ، وعمان ، والكويت ، وحائل<sup>(٢)</sup> ، فالمدينة ، ومكة ، ووصل إليها في أوائل ذى القعدة فوجد الأفاضل الذين اجتمع بهم في

(١) السراة : جمع سري .

(٢) حائل : قاعدة إمارة نجد .

البلاد قد أجابوا الدعوة عدا الأديب البيروتي . ثم سعى في تخيّر اثني عشر عضواً أضافهم إلى الأعضاء من مراکش ، وتونس ، والقسطنطينية ، وبغجة سراى ، وتفليس ، وتبريز ، وكابل ، وكشغر ، وقازان ، وبكين ، ودلهى ، وكلكتا ، ولغربول .

ثم تخيّر داراً في حى متطرف بمكة يعقد فيها الاجتماعات بصورة خفية ، واستأجرها باسم بواب داغستاني روسى لتكون مصونة من التعرض . وانعقد المؤتمر من منتصف الشهر إلى سلخه ، في اثني عشر اجتماعاً غير اجتماع الوداع ، فكانت مذكرات هامة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة ، وكان هذا الكتاب هو السجل يتضمن كيفية الاجتماعات والمفاوضات والمقررات عدا ما آثرت الجمعية كتابته .

وراح السيد الكواكى ييسط في الكتاب سجلّ الاجتماعات في اثني عشر فصلاً ، أرخ لكل اجتماع باليوم والتاريخ .

١ - الاجتماع الأول : « خطبة الرئيس » وكان عدد الأعضاء فيه اثنين وعشرين فاضلاً كلهم يحسنون العربية ، عرف الفراقى بعضهم إلى بعض ، ووزع عليهم قوائم مطبوعة بالجلاتين استعارها من تاجر هندى بمكة ، وترجم لكل منهم فيها ، ببيان الاسم والنسبة والمذهب والمزىة ، وأوضح الرموز التي يستعملها في المؤتمر .

وأعضاء الجمعية<sup>(١)</sup> هم : الفراقى ، الشامى ، القدسى ، الإسكندرى ، المصرى ، اليمنى ، البصرى ، النجدى ، المدنى ، المكى ، التونسى ، القامى ، الإنكليزى ، الرومى ، الكردي ، التبريزى ، التاتارى ، القازانى ، التركى ، الأفغانى ، الهندى ، السندى ، الصينى ، ورئيسهم المكى ، وكاتب الجمعية هو الفراقى نفسه .

وتكلم الرئيس في الانتصار للدين والسعى للديمقراطية في الحكم « وأمرهم

(١) حضر الجمعية يمثل أو أكثر لكل قطر إسلامى أسبق على كل منهم وصفاً ونبأً خاصاً كالبلغ والحافظ .

شورى بينهم» ، وبسط أمر تمهقر المسلمين منذ ألف عام ، وأن الشَّلَل استولى على كلِّ أطراف المملكة الإسلامية ، وأن الخطر قرب من جزيرة العرب فسعى المخلصون لتوحيد الوجهة وجمع القوة ، فنشروا مواعظاً ومباحث تدور حول الحالة الحاضرة ، من جهل وخلل وتُنْحَى باللائمة على الأمراء والعلماء والأمة لتقاعسها عن الاتفاق . وأوصى الرئيس بالاكنتام في الاسم والصراحة في القول ، ونبذ المذاهب المختلفة واتباع مذهب السلف وهي عقيدة الحنابلة التي يأخذ بها أهل الجزيرة . ثمَّ دعاهم إلى عدم اليأس مما وصلت إليه الأمة من ضعف وفتور فقد نشأ في الإسلام أنجاب أحرار وحكماء أبرار يستطيعون أن يوقظوا الأمة من غفلتها الحاضرة وخاصة إذا استطاعت أن تضمهم جمعية كهذه الجمعية ، فيد الله مع الجماعة . وطلب إليهم التفكير في المسائل التي ستدور حولها المباحث في كلِّ يوم عدا الثلاثاء والجمعة ، من بعد طلوع الشمس إلى قبيل الظهر . وهذه المباحث تحوم حول سبب الفتور في الأمة الإسلامية وتشخيص دأها ووصف دوائها ومقاومة البدع والشرك .

## ٢ - الاجتماع الثاني : « الداء أو الفتور العام » وتناول الرئيس بحث الفتور

النازل بالمسلمين ، وذكر أن هؤلاء أقلَّ نشاطاً وانتظاماً من جيرانهم غير المسلمين حتى لقد خيَّب للناس أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ، وتكلم الهندي فرأى غير المسلمين من النحل الوثنية أكثر فتوراً من المسلمين ، فراجع الرئيس « المكى » عن رأيه وطلب إلى إخوانه أن لا يصرّوا على رأيهم الذاتي وأن لا ينتصروا له ، فالرأى خاطر يستنح وربما كان صواباً أو خطأ ، والأساس هو البحث والمناظرة . ونقد « الشامي » العقيدة الجبرية فرأى أنها من المخدرات المثبِّطات ، فأجابه القدسي إنها وجدت تنفيساً للمقهورين البائسين فهي سبب لاعتدال النشاط . ودفع إلى الإيثار العام ، وإنما السبب في الفتور هو تحوّل السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ثمَّ مطلقة . وقد جعل المتطرفون منها وسيلة للانقسام في الرأى فوَقعت الحروب الداخلية والخارجية ، وأصبح بأس المسلمين بينهم ، وأجاب « التونسي » إن جرمانيا وقع فيها مثل ذلك ولكنها نجحت ، فسيب البلاء

تأصل الجهل في غالب أمراء المسلمين المترفين . ورأى « الرومي » أن البليّة هي في فقد الحرية ، حرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات وحرية المباحثات العلمية ، فالحرية هي روح الدين ومنذ فقدت الحرية لجأنا إلى الخرافات والملهيات فضعف إحساسنا وألِف كثير منا الاستعباد والاستبداد والذلّ والهوان فصار الانحطاط طبعاً ، وصارت المطالبة بالإصلاح مُروفاً من الدين ، كأن مجرد كون الأمير مسلماً يُغنى عن كلّ شيء حتى عن العدل ، وكأنّ طاعته واجبة على المسلمين وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية . ورأى « التبريزي » وجوب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأجاب « الفاسي » إن طاعة أولى الأمر واجبة ، ولكن الصيغة صريحة لا تؤيد سلطة الأمراء على الإطلاق ونقل على ابن طباطبا<sup>(١)</sup> في « الآداب السلطانية » ما كان سنة ٦٥٦ من فتوى العلماء حول أفضلية السُلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ ففضّلوا العادل الكافر ، ثم ضرب المتحدث الأمثال بحكمة بسمارك وغاربيالدى وتغنى أن يرى في العرب رجالاً مثلهما يجمعون كلمة الأمة ويوفقون بين الأمراء . وأجاب « المدني » بأن الطاعة هي من تشويش العلماء المدلسين وغلاة المتصوفين الذين استولوا على الدين فضيّعوه وضيّعوا أهله ، يتأولون القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم ، ويدعون تسم المقامات وزخرفة القربات ، فاقتبسوا من أصحاب التلمود والبابوية ومقامات البطارقة والكردينالية والرهينة مراتبهم ومراسمهم سحراً لعقول الجهلاء واختلاباً لقلوب الضعفاء ، ووضعوا أحاديث مكذوبة ، وأقاموا لهم أسواقاً في العواصم فسرت الخزعبلات والأوهام وأفسدوا العامة . ورأى « الرومي » أن المنشأ لكلّ فساد هو انحلال السلطة القانونية ، وتسلّط فرد عليها .

٣ - الاجتماع الثالث : « الداء أو الفتور العام » . وهنا أكمل « الرومي »

(١) ابن طباطبا هذا هو المعروف بابن الطقطقى المتوفى سنة ٧٠٢ هـ صاحب كتاب « الفخرى

في الآداب السلطانية » .

قوله في ولاية الجهاد المتعمتين ، وقد دخلتهم في كل شيء مما يصلح الشرع ، فهم يزيتون للأمراء استقلالهم في الرأي ومعاداة الشورى ، فأجاب « الكردى » إن العلماء اقتصروا على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقي العلوم الرياضية والطبيعية ، وهذا سبب نمو الغرب ورفقته . وهم يقتصرون على البحث في النوافل والحكايات الإسرائيلية والنوادير والكرامات وذلك جعلهم أخط من غيرهم . فقال « الإسكندرى » إن السبب في الفتور هو بأسنا من مباراة الأمم الأخرى . ورأى « الأفغانى » أن الفقر هو السبب لأنه قائد كل الشرور ، والحكومات صارت تجبي الأموال من المساكين والفقراء وتبذلها للأغنياء . وقال « الإنكليزى » إن المسلمين إذا اتبعوا دينهم أمنوا لفقراً واستغنوا عن المبادئ المتبعة في الاشتراكية ، وطلب التساوى والتقارب في الحقوق ، ورأى أن فقد الاجتماعات والمفاوضات والوعظ في أمور الجماعة أفقد الإحساس باجتماع الشمل للبحث في أحوال المسلمين . وعند الغرب يتوجهون إلى اختراع مبادئ لاجتماعهم كعقد الندوات والتفرغ للمذاكرة وإلقاء الخطب وإبداء التظاهرات ، وإيجاد المنتزهات والتمثيلات وادخار الآثار ، وإقامة النصب ، وإنشاد الأغاني والحكم ، وكل ذلك ينشئ في القوم حياة اجتماعية ويبعث الحماسة والحمية . ورأى « الصينى » أن السبب ميل الأمرء إلى العلماء الملتصقين المنافقين الذين يزيتون لهم الاستبداد . وتطرق « النجدى » إلى تبدل النظرة إلى الدين ، فطراً التأويل والتحريف عليه ودخله الشرك فأسمى محتاجاً إلى الرشد والإصلاح .

#### ٤ - الاجتماع الرابع : « الدين والإسلام والشرك والتصوف » . فتكلم

« النجدى » باحثاً في ناموس الكون ، ووجود الأنبياء ورسالة المصطفى ودعا إلى اتباع الصريح المحكم من القرآن ، والواضح الثابت مما قال الرسول . ورأى أن آفة البشر الشرك ، فالتناس سربعو الإعراض عن ذكر الله إلى ذكر من يتوهمون فيهم أنهم شركاء وأنداد لله ، فيعظمونهم ويخضعون لهم ويدعونهم ، ويرفعون حاجاتهم إليهم . وعدد الإشراك في الملك وفي الصفات وبسط الأمر في حال

المشركين من إعداد الأصنام والتماثيل ، والوقوف عند القبور وطلب الحاجات والاستغاثة بالشيخوخ ، وجعل الدين هواً ولعباً فتغنّوا ورقصوا ونقروا الدفوف وهم يُظهرون الخشوع والعبادة .

ومن العلماء من حمل كل ما فعله الرسول أو قاله على التشريع ، فعظم التشدد في الدين . وبسط المتكلم حكايات عن النبي وشواهد لحياته وأقواله في هذا الصدد ، وسرد الأحاديث الكثيرة والآيات البيّنة ، وروى ما كان من المتأخرين في تقليد الرسول بالسواك وغيره . وقال إن غالب العلماء الشافعية يُحسِنون الظن بغلاة الصوفية . فأجابه « المصري » مبيّناً مذهب الشافعية من الإعجاب بالزّاهدين والمتصوفة والتأوّل لهم ، ولكنّ أهل الجزيرة أهل عصبية وصلابة رأى وعزيمة لا ينساقون مع البدع وإنما يتمسكون بالدين الحنيف كما جاء وينفرون من التوسّع في البحث .

٥ - الاجتماع الخامس : « الكتاب والسنة النبوية » . وفيه تكلم « الإنكليزي » فذكر إسلامه مستهدياً بالكتاب والسنة ، وأنه كان يروتستاني المذهب ، والبروتستانت انقلبوا عن الكاثوليكية لترجيحهم الاقتصار على الإنجيل ومجموعة الكتب المقدسة ، متوناً فقط ، أى بإهمال الشروح والتفسيرات وهم يُنكرون الرياضة الدينية والرهبانية والتوسل بالقدّيسين ، ولذلك تقرب من الإسلام ووجد فيه ضالته ، وهو هنا يجب أن يعلم ما الكتاب وما السنة ، وكيف يلزم المسلم العمل بهما ؟ فأجابه « النجدي » متوسّعاً في تعريفهما وفي الكلام عن نواسخ الأحكام وتفرّق بعض المسلمين في فهمها . وتكلم « المصري » عن مراتب الأحكام والعبادات ورجا لو أُلّف فيها العلماء كتباً منسقة تسهل على العامة أن تعرف بها ما يكلفها الدين إياه . وتحدّث « الجنّي » عن حال الإسلام في اليمن وأنه يتبع أصول ابن حنبل ، وأن العلماء فيه يعرفون العربية المضربة القرشية معرفة كافية . ويقرءون كتاب الله قراءة فهم ، ويتصلّعون في السنة المدوّنة ، ويكونون واسعياً الاطلاع على سيرة النبي وأصحابه ، وأصحاب عقل سليم فطرى لم يفسده المنطق

والجدل ونزعات المعتزلة وإغرابات الصوفية . وقال إن هناك طبقة تليهم هي طبقة القراء ، الذين يقرءون كتاب الله قراءة فهم ويستهدون في أصول الدين بأنفسهم وبينون ذلك على قرآن ناطق أو سنة صريحة .

٦ - الاجتماع السادس : « تفرق المسلمين إلى شيع ومذاهب » . تكلم « السندی » عن طريقة بلاده ، وذكر أنهم يتبعون النقشبندية وقد اعترف أن فيها بدءاً عرف تحريمها حين حضر هذه الاجتماعات ، فعزم على النصيحة والموعظة لهداية جماهير النقشبندية وتصحيح وجهتهم في بلاده ، وذكر أن سبب نشوء هذه الطرق هو تضييق الفقهاء على المسلمين أمر العبادات ، فصار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالالتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كل تهوين . وعلق الرئيس « المكي » موضحاً بحث التصوف ، فبدأ بالتنسك في المسلمين وانتهى إلى دخول الفساد على التصوف وإضراره بالدين وبالمسلمين خلال القرون ، وذلك عندما سيطر الغلاة على الأمر . وتكلم « القازاني » فقص حكاية المستشرق الروسي الذي اهتدى إلى الدين الإسلامي فاجتمع بمفتي قازان يريد أن يتتبع القرآن وأن يتحقق ما ورد عن رسول الله ( ص ) ، وروى النقاش الذي دار بينهما حول رواية الأحاديث وموقف الأئمة منها ، وما كان من رأى المستشرق في تحقق المسلمين بأنفسهم كل دليل من الكتاب أو السنة ، وأنهم على تشديد وتشويش في أمر الدين سبب انحطاطهم كما سبب انحطاط من قبلهم من أهل التلمود والإنجيل ؛ وأنه يرى أن يؤلف كتاباً يصور حكمة دين الإسلام وسماحته . ورأى « التبريزي » أن الفتنة التي أصابت الإسلام كانت في التدقيق والجدل حول الخلافات بين الأئمة ، فاتسعت دائرة الأحكام في الشرع ، وصار الخلف عاجزين عن التقاط الفروع ، وأقبل المتأخرون على التقليد ، وصار أهل كل إقليم يتعصبون لمؤلفات شيوخهم ، وتقسّم المسلمون بذلك شيعاً وأحزاباً ، وضرب لذلك مثلاً حال بلاد فارس .

٧ - الاجتماع السابع : « مجمل الأدواء والأدوية » .

وهنا طلب الرئيس من « الفراتي » أن يبدي رأيه في سبب الفتور المبحوث

فيه وأن يقرّر مجمل الآراء المعروضة ، فراح الكتاب يورد خلاصة ما كان من سبب في انحطاط المسلمين وما اقترح الأعضاء من أدوية وعلاجات لذلك ، فلخصها في أسباب ثلاثة : دينية ، وسياسية ، وأخلاقية . وانتهى إلى إبطال التخالف وتشويش الأفكار وإسكات المدلسين وخلع المنجمين ونبد التقليد والتعصب للمذاهب ؛ وإلى طلب الحرية ونزع الاستبداد وإبعاد الأمراء المستكبرين المترفين ، وإلى محو الجهل وتقوية التعليم ، وصرف التملق . وأضاف إلى ذلك أسباباً أخرى في السياسة والإدارة العثمانيين ، حيث طلب توحيد القوانين ، وتولية الأكفيا للمناصب الخطيرة ، وندد بهضم الدولة العثمانية لحقوق العرب في هذه المناصب ، وتمييزها الأسافل ، وإدارتها المعتمدة على التزلف والرشوة وبغضها للعرب ونبذهم بالألقاب ، وهاجم أمة الترك وما جلبت من نقمة على العرب .

#### ٨ - الاجتماع الثامن : « حال النشء الخلقية » .

أكمل « الفرائى » قوله ، فبسط معاييب الأمة ، وإهالها لشئونها ، وتعلقها بالفوضى ، وركونها إلى الخمول والكسل ، وسعيها نحو التمجيد والتعالى ، وتركها النساء جاهلات مع العلم بأن أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء أنهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات ؛ ونظرتهم إلى الأجانب نظرة الكمال وتقليدكم والتمسك بعاداتهم . والنشء المتفرنج لا خير فيه لأنه ينظر إلى الأعاجم نظرتهم إلى سيد متفوق .

#### ٩ - الاجتماع التاسع والعاشر والحادى عشر :

قرىء فيها قانون الجمعية فقرة فقرة ، وأبدت عليه الملاحظات قبل إقراره .

#### ١٠ - الاجتماع الثانى عشر : ( قانون الجمعية ) .

إقرار القانون بتعليم الموحدين ، مع تأليف الجمعية ، وشروط الأعضاء فيها ، ومركزها وشعبها ، ومبانيها ، وأموالها ، ونفقاتها ، ووظائفها ، ومساعدتها وأعمالها ، ووضعها المؤلفات والكتب والمتون والأبحاث والمقالات . وتقرر بعد ذلك

نشر القانون وترجمته إلى التركية والفارسية والأوردية . واختارت الجمعية مركزها الموقت في مصر دار العلم والحرية . وكان اجتماع الوداع في رابع أيام العيد فأقرت الجمعية بعض قرارات سرية لا تزداع وتلحق بالسجل . ومنها أنها ربطت آمالها بجزيرة العرب ، فهي مشرق النور الإسلامى ، وفيها الكعبة والمسجد النبوى وشعبها أسلم الأقاليم من الأخطاى جنسية وأدياناً ومذاهب ، وأحرص الشعوب الإسلامية على الحرية والاستقلال ، فهم عرب ، والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى وأحرصها على احترام العهود ، وأنسبها ليكونوا مرجعاً فى الدين وقوة للمسلمين .

وهذه الأسباب جعلت جمعية أم القرى تعدّ العرب الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة المشرقية . وهكذا تمت الاجتماعات .

\* \* \*

وأضاف السيد « الفرائى » بعد نهاية الاجتماعات لاحقة بين فيها سبب تعلق الجمعية ببحث السياسة الدينية وإحلالها الموقع الأول فى مناقشاتها ، فقال إنها بحثت علة الفتور فرأت أنها الخلل الدينى فإذا زالت العلة زال المعلول . ودار حول النقد الذى يمكن أن يوجه إلى هذا القانون من صلة الدين بإدارة الملك ، وتحدث بعد ذلك فى الخلافة الإسلامية على مرّ العصور حتى بلغ إلى العثمانيين وتكلم عن سلاطينهم ، ورأى بعد ذلك أن تكون الجامعة الدينية تحت لواء الخلافة ، وأن يكون الخليفة عربياً قرشياً -سجماً للشرايط ، وأن يكون مركزه « مكة » ، ترتبط به جميع السلطنات والإمارات الإسلامية ارتباطاً دينياً . ورسم هيئة الشورى والاتحاد الإسلامى وسوّغ لإرجاع الخلافة إلى العرب ، وحلل أسباب الغزو التتارى والأوروبى خلال القرون وبين أنها ليست من أنواع الجهاد ولا من الحروب الدينية وإنما هى غارات قرصان .

\* \* \*

هذه هى الخطوط الرئيسية لكتاب « أم القرى » رأينا فيها كيف أحكم

الكاتب قصة الاجتماعات والمناقشات ، حتى لكأنها دارت حقيقة في مكان معلوم وأسلوب محدود ، لم يفته في وصفها شيء من أدق التفاصيل ، فهي رواية عظيمة — كما قال الأستاذ أحمد أمين — بل إنها خطة للجامعة إسلامية قد انعقدت منذ خمسين عاماً ، وصفها شاهداً وصف عيان ، ويبحث فيها مشكلة المسلمين والإسلام ، ورسم علل الأمم المحمدية من المشرق إلى المغرب وصف حاذق سياسى إدارى عالم ، كشف عن معرفته للمذاهب الأوروبية والشرقية في الدين والسياسة والعلم ، وأفصح عن رسوخ قدمه في فهم الدين الإسلامى فهماً عميقاً فصل فيه الأمر عن العبادات والمعاملات وأوضح أنه إمام من أئمة الدين في الاستشهاد بالكتاب والسنة استشهاداً لا يقع إلا للمتبحرين في المصادر الإسلامية الفراء ، الواقفين على تاريخ الإسلام وتقلبه على العصور ، المتحمسين للعبوة القرشية ، والخلافة المحمدية ، والديمقراطية الإسلامية ، ورفع صاحبه إلى مصاف العلماء المؤرخين المصلحين الذين فهموا الدين وصلته بالتاريخ وعلاقته بالشعوب ، فهو لا يقل شأناً عن كبار الفلاسفة الدينين في الغرب مثل « لوثر » و « كالفين » وغيرها . وهو قد تناول المشاكل التى نحسن بها اليوم ونشكو منها ونختلف فيها ، فكتابه ما يزال كتاب الساعة ودستور الإسلام ، يجب أن يعود إليه العرب والمسلمون ليعرفوا الإسلام الصحيح ، والعلة الخفية ، والدواء الناجع ، على لسان عالم صادق مخلص ، عبقرى ، ابتكر هذه الرواية من خياله فيما نظن ، وسبق الزمان فحق للجامعة العربية أن تستقى من بحوثه وأن تستشف من آرائه ، وأن تستنير بهديه ، فهو مصلح الإسلام في القرن العشرين ، وهو طبيهيم — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — يفحص المرض في هدوء ويصف الدواء فى أناة ، فهو رزين هادئ الطبع صافى الذهن ، واسع الفكر عظيم الإمام ، وهو إلى ذلك روائى ومسرحة واجتماعى ودينى ، ندر أن تجد العربية مثيلاً له فليتها عادت إليه ، ونظرت في كتابه ، وأقرته لمدارسها العالية ، وتناولته بالبحث والقراءة والمطالعة ، مع النظر إلى الزمن الذى ألف فيه ،

والضيق الذي نُشر خلاله ، وضآلة المصادر وصعوبة الاتصال بين الشعوب ، وبعد المؤلف عن الدراسة العالية والشهادة السامية والجامعة المثالية . ولكنها العبقريّة لا تحتاج إلى مدرسة ولا إلى شهادة أو جامعة ، لأنها منارة تهتدى بهديها الجامعات ، وتنال على نورها الدراسات ، وترتفع بها الشهادات ، فإذا كان أفلاطون قد اشتهر بكتابه « الجمهورية » في اليونان والعالم ، فإن الكواكبي لا يقلّ عنه شهرة بكتابه « أمّ القرى » في العرب والعالم .

\* \* \*

(ح) صحائف قريش : ألفه السيد عبد الرحمن الكواكبي كذلك ، وذكره ابنه الدكتور محمد أسعد ، فقال : « وكان معدّاً للطبع ولكنّ حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة في غير هذا المكان ثمّ وقوع الوفاة الفجائية ، فصوّد مع الأوراق المصادرة ، وأرسل هدية إلى السلطان . وقد بحثتُ عنه في أكثر من دور الكتب الأهلية بالآستانة بعد إعلان الدستور وخلع السلطان فلم أعثر له على أثر<sup>(١)</sup> . » وقد أعلن الكواكبي نفسه عنه في صدر كتابه « أمّ القرى » فقال : « من يظفر بنسخة من هذا السجلّ فليحرص على إشاعته بين الموحدين ، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشرات الجمعية باسم صحائف قريش التي سيكون لها شأنٌ إن شاء الله في النهضة الإسلامية العليمة والأخلاقية . ولا شك في أن هذا الكتاب يعالج فضل الخلافة في قريش وفضل مكة على غيرها في قاعدة الخلافة ، وهو تنمة لبحوثه في « أمّ القرى » .

(د) العظمة لله : ألفه الكواكبي كذلك وذكره ابنه فقال : « هذا الكتاب أيضاً لم يُطبع ، وقد صوّد مع أمثاله<sup>(٢)</sup> . » وقد ذكر الأستاذ الجليل محمد كرد علي - الذي كان من أصحاب المرحوم إبان وجوده في مصر - في كتابه « المذكرات » أنه اطّلع عليه . وقد قال الأستاذ الرئيس كرد علي في مذكراته

(١) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبي ، ١٩٥٢/٩/٥٤٨ .

(٢) المصدر نفسه بالصفحة نفسها .

يصف سرقة أوراق الكواكبي ، وأن السلطان أرسل مدير معارف بيروت عبد القادر قباني يحملها إليه ويرضى أسرته بمبلغ من المال : « فاحمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكبي المطبوعة . أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية ، وبعض كتبه التي بدأ بوضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمه (العظمة لله) . وكان سياسياً كسائر ماخطته يمينه »<sup>(١)</sup> .

(هـ) مجموع أشعار : ذكر ابنه فقال إن أباه كان يسجل ما يروقه من الشعر ، ويصفه على عشرين صنفاً ، واضعاً في نهاية كل بيت شعر رقماً خاصاً يدل على غزل أو نسيب أو مدح أو هجاء أو رثاء إلخ . . . وقال : « ولا أزال أحتفظ بكناش<sup>(٢)</sup> فيه مجموع أشعار تنوف على الثلاثة آلاف بيت مصنفة على الطراز المذكور ومحرومة بخطه المشهور الذي لا يقلد ، إلا أنه لم يكن في حياته مكثرناً لقول الشعر الذاتي ، حيث لم أعثر له على شيء من ذلك سوى بعض أبيات حماسية قالها عفواً حين تحريره "أم القرى" في حلب ، وقصيدة حررها وأرسلها من مصر إلى أخيه السيد مسعود وهي باثية صورتها محفوظة عندي<sup>(٣)</sup> . ولعل القصيدة التي يشير إليها ابنه هي القصيدة الواردة في أم القرى<sup>(٤)</sup> ولكنها ميمية أنشئت على لسان الرئيس «المكي» في مدح الدين والدعوة إلى تنقيح الشرع من الحشو والبدع ، وهي أشبه بنظم العلماء منها بشعر الشعراء والفحول . وحبذا لو نهض عالم أديب لطبع هذه الآثار طبعاً علمياً ، وخاصة كتاب «طبائع الاستبداد» فأضاف إليه ما حرره صاحبه من زيادات على الطبعة الأولى ، وهي تقرب من ثلث الكتاب رأيناها ، وقد أعدّها ابنه للطبع بنفسه ووقفته دون ذلك ظروف الحرب الثانية كما قال<sup>(٥)</sup> . فهي

(١) « المذكرات » ، محمد كرد علي ، ج ٢ / ٦١١ ، بعنوان : « الدم الطاهر » .

(٢) الكناشة : مجموعة كالدفتري تدرج فيها الشوارد والفوائد .

(٣) « الحديث » ، محمد أسعد الكواكبي ، ١٩٥٢ ، ٥٤٥ / ٩ .

(٤) الطبعة الرابعة « لأم القرى » ، ص ١٥٨ .

(٥) محمد أسعد الكواكبي ، « الحديث » ١٩٥٢ ، ٥٤٩ / ٩ .

هامة في كمال فهم المؤلف وأسلوبه وتطوره، حررها قبل وفاته بثلاثة أشهر في مصر ، وهو في جوارح الحرية والعلم والمصادر مما لم يتح له مثله في حلب .

## ٢ - الكواكبي الوطني

نظر الكواكبي إلى الوطن نظرة الأمويين إلى وطنهم حين الفتوح ، فرأى أنه يمتدّ من تخوم السند إلى أقصى تطوان فأحبّ أن تربط بين أجزائه رابطة العروبة واللغة والدين ، وعمل لهذا الوطن الكبير كما يعمل بعض الزعماء المصلحين اليوم ، فأحبه وعمل له وتفانى في سبيله ، فلم يقعد منذ نعومة أظفاره عن المناذاة بحبه والدفاع عنه والعمل له ، فحرّر وكتب المقالات في إصلاحه ودفع الأذى عنه . وحين تولى الوظائف عمل جاهداً في الإصلاح والخير ، فلما كتب كتبه نادى بحريته ونزع سلطة العثمانيين وجورهم . ولم يهب جواسيسهم وعميونهم والمرضى والخنوة من أبناء قومه ، وهاجر حين ضاقت به سبل الاستبداد والاستعباد فترح إلى مصر ساعياً في حرية وطنه وقومه من جور الأتراك . وساح في أطراف هذا الوطن الواسع يريد أن يلم شعثه وأن يجمع كلمته وأن يثقيه من أمراضه وعمله ، فكان الوطني المخلص المتفاني الذي ينادى بطرد المستعمرين عن أرضه لأنهم مستغلون أنانيون يسلبون أموال أمتهم ويزاحمون المواطنين على أملاكهم ، ويتحيلون لإذلالهم ، فهم ظامعون في عبودية شعبه وإفقاره وإبقائه على الجهل . وهو يصف الاستعمار بأنه تاجر يستمتع بوسائل الشرق وغناه . وآراؤه في الوطنية لا تختلف عما ينادى به أعمق المتحررين من زعماء الشرق والعروبة اليوم ، وعمله لوطنه لا يقلّ عن عمل الجيوش المكافحة عن الحمى والذائدة عن الحدود ، فهو وحده حمل القلم ونادى بحرية أمته وطرد الغاصبين عنها ، لم يستسلم لمغريات المستعمرين ولم يلبن أمام تهديدهم ، وقد كان يستطيع أن يرضى بالمناصب الرفيعة

وأن يؤثر العافية على هذا التضال الذى وقف له أيام حياته كلها ، حتى قضى وطنياً مكافحاً فى سبيل هذه الإمبراطورية العربية ، لم ينل من دنياه غير الغصّة والأسى والألم والحرقه ، متنقلاً مهاجراً غربياً لاجئاً فى كل قطر عربى ، لأنه كان يجد فيه وطنه الكبير وأمله المرتجى . لم ينعم بالقصور والرياش والمال ، ولم يبال بما خلف وراءه من زوج وأولاد وأسرة وعشيرة ، وإنما ضرب أروع الأمثال فى التضحية الوطنية ، فكان الزعيم الوطنى الذى لا يباريه فى حبه لقومه ووطنه أكبر زعماء الغرب ومناضليهم ممن عملوا اتحاد ألمانية وإيطالية والولايات المتحدة والولايات السوفيتية . فهو علم من هؤلاء الأعلام الوطنيين ، وسور شامخ فى البذل والفداء ، لا ينساه الوطن العربى أبداً الدهر ، ولكن يفترقه فى حلك لياليه ، وفى الليلة الظلماء يفترقه البدر .

### ٣ - الكواكبى السياسى

دخل السيد عبد الرحمن صرح السياسة من بابها الواسع فكتب فى الصحف ينادى بسياسة عربية إسلامية ، وألف الكتب والبحوث فى سبيل هذه السياسة ، وكان إيجابياً - كما نقول اليوم - فحفظ لهذه السياسة منهجها ودستورها وقانونها ، وحدد الحطة والطريقة ، فكان كمن يرسم لقومه سبيل العمل إلى خلافة عربية قرشية مركزها مكة ، تربط بين أجزائها روابط العرق والدين ، ورأى أن الشعب العربى فى الجزيرة أعرق الشعوب وأبعدها عن شوائب الاختلاط . ثم سنّ لهذا الشعب أسلوب الحكم الديمقراطى الذى يقوم على الشورى والعدل والمساواة . واستعرض طرق الحكم فى الإسلام منذ الراشدين إلى يومه فاختر أحسنها وأقربها إلى الحكم المثالى . ورسم وظائف الأمراء والوزراء وما يكون من المناصب الخطيرة فى فوضى الحكم أو فى نظامه . ونبذ الحكم المطلق ، وكتب فى توزيع الضرائب وإعداد الدفاع عن الوطن ورعاية الأمن وتأمين العدالة القضائية ، فكان السياسى

الواعى الذى يفكر بكل شىء ونحوه فى كل دقيقة من دقائق الحكم والسيادة .  
ومن خلاصة كتابيه تتبين الجمهورية الفاضلة فى السياسة العادلة والخلافة العاقلة .  
ولا شك فى أنه طرق مشاكل العثمانيين والعرب والغربيين وحلها على ضوء السياسة  
العلمية المنطقية فكتب لأتمه كتاب السياسة مشرق النواحي واضع المعالم لا التواء  
فيه ولا محاباة ، ولا ميل ولا زيف ، وإنما كان عربياً خالصاً بالرغم من كل ما قد  
يحوم حول سياسته من دعم الغربيين لها أو رضاهم بها .

#### ٤ - الكواكب الاجتماعية

إذا كان الكاتب الاجتماعى هو الذى يصف قومه ويرسم عليهم وأمراضهم  
ثم يتبين الداء ويصف له الدواء فالكواكبى بلا مرء على رأس الكتاب الاجتماعيين  
الذين دخلوا فى صميم الشعب وأحسوا بأوجاعه وآلامه وشكاواه ، والأمة العربية  
وقعت فى أشراك الاستعمار والانحطاط والانحلال فتخبطت فى ظلمات الجهل  
والإسفاف والسخافة ، فسبحت فى بحر من العقائد والبدع والزيف فى الحياة  
وفى الدين آلت إليها من السحرة والمنجمين والمتفهبين والمتعلمين أو أدعياء الدين  
خلال القرون المظلمة فكان لا بد لهذا الكاتب من تصوير ما وقعت فيه وابتليت  
به ، فقد ركبها التصاغر والملق ، والتعبد والتنابد بالألقاب والسعى وراء الرواتب  
والمراتب ، والسير وراء الشره والتكالب على المال ، فقام الاحتكار ، وعم  
الاستعمار والاستبداد والطيش والفقر والتزق ، واستذلت النفوس وخدعت الضمائر  
وماتت الآمال ، وديست المقدسات وفسدت الأخلاق ، وانتصر الحقد ، وضعف  
حب الوطن ، وسيطر الفرد فتلاعب الزعماء المزيفون بالشعب ، وسخروا العامة  
لآربهم ، وقلبوا الحقائق ، وعبثوا بالأديان ، واستنم الناس لراحة الفكر والحمود .  
وسارت فى العامة مشبطات تهون من حياتهم الذليلة لا يجدون نجاة من المرض  
والجهل والفقر وأصبحوا كالحیوانات البهيمية لا تستيقظ ولا تستنير .

لذلك هبّ الكواكبي منذ نشأ مذعوراً لأمته كيف حال بها الحال وآلت إلى شرّ المآل ، فدعا إلى التساوى بين الناس وإلى توفير العلم والغذاء والكساء للفقراء ، ونادى بالعدالة الاجتماعية والأحكام الديمقراطية ، وصاح بالغافلين والمستضعفين صيحته المدوّية فلم تذهب مع الريح وإنما دكت الأظواد ، وآتت أكلها بعد حين ، وكان في صيحته يتدرّع بالأمل ، ويركب الطموح ، وينبذ اليأس والخوف والخزع ، يريد أن يدفع الفتور عن المسلمين وأن يجمعهم على صعيد الحبّ والتآلف ، وأن يرموا بالخرافات والملهيات جانباً ، وأن يتعلّقوا بالاشتراكية العاقلة وأن يتفرغوا للندوات والمذاكرات ، وأن يتلفتوا إلى إنكار الرياسات الدينية الكاذبة ، والرهبانية المحرمة ، والتوسل بالقدّيسين والمشايخ ، والبدع والصوفية .

وهو بذلك عالج قضايا البيت ، والأسرة ، والتربية ، والمرأة ، والشارع ، والحديقة ، والقصر ، والحكم ، فتنطرق إلى أفراد المجتمع وتناول بلاياه وأمراضه ووصف علله وأدواءه فكان خير حكيم وخير مصلح اجتماعي . ولم يقتصر على القول والكتابة وإنما عالج بنفسه ذلك فنصر الضعفاء والمظلومين حين تولى المناصب إلى أن عافت نفسه الحكم ، فوقف على منبر المصلحين ينادى بملء صدره حتى سكت ما بين جنبه وقضى .

## ٥ - الكواكبي الأديب

صوّر الكواكبي عصره وزمانه وما يصطرع فيه من أهواء وما يضطرب فيه من نزعات تصوير الكاتب الأديب . فأرسل من نفسه صيحات مدوّية ، بقلم بارع سريع التأثير عميق المدى ، في لغة متينة سهلة لم تصطنع قبله لرسم آلام الأمة وأمراضها وأدويتها وعلاجها ، ولا استخدمت قبل في رسم المشاعر القومية والنزعات الاجتماعية والحلجات السياسية . خرج فيها من مستلزمات البيان القديم

في مزاجية الحمل واستعمال المجازات والعكوف على السجع إلى ميادين فسيحة من سهولة التعبير وانسجام الجملة ، وتسلسل العبارة ، وانقياد الفكرة إلى أعمق مداها . فكأن الكلمات قطعة من نفسه ، أو كأنها حشرات ترسلها ضلوعه أو زفرات يتنفس بها صدره لأنها كانت طبيعية لا تكلف فيها ، تثير في القارئ ما أثارت في المؤلف فتصل بينه وبينه برابطة من فكر وشائج واسعة التأثير تحمله إلى الجوّ الذي كان فيه الكاتب الأديب ، وهذا هو الأدب الحق فيما نرى . ولقد عالج الأديب موضوعات لا تتصل بالخيال الأدبي ولكنه صاغها بأسلوب أدبي فجعل من بحثه في سياسة المسلمين رواية أجرى الحوار فيها كما يجري في مسرحية كاملة الفصول دقيقة التفاصيل ، وكان لخياله الأدبي الرائع فضل في ربط أفكارها وجمالها ، وانسجام عباراتها وفواصلها لا يقع إلا لأديب موهوب .

وفي كتابيه - اللذين حللنا فصولهما قبل قليل - ألواح جميلة من روائع الأدب في تصوير الاستبداد ، أو الجهل ، أو الفقر ، أو حبّ الوطن ، أو سيطرة البدع ، أو الحثّ على اليقظة والنهضة ، ما يشفع لنا بدفع الأدباء إلى دراسته كأديب كبير من أدباء القرن التاسع عشر ، وفي هذين الكتابين كذلك خطب في إثارة الهم وإيقاظ الشعور تصلح أن توازن بالخطب العربية المشهورة لعصورنا الأدبية من مائة التعبير . وصدق التصوير ، وعمق التفكير . وقد قلنا من قبل إن أسلوبه اختلط على النقاد في عصره فنسبوا كتابه في الاستبداد إلى محمد عبده ورشيد رضا وجمال الدين الأفغانى ، ممن اشتهروا برائع البيان في الصحافة والمقالة . ولعله أخذ بيانه عن مدرسة القرآن وأسلوب الحديث لكثرة ما حفظ في صباه ووعى في شبابه من هذين النبيوعين الثريين<sup>(١)</sup> ، فجاء بيانه على أبسط أسلوب وأسهل منال ، بعيداً عن التقعر والغوص على الغريب وإطالة الحمل . ولو قد مدّ الله في عمر الكواكبي وأطال في كتابته فعرض للموضوعات الأدبية في خطبه لسلك في فحول الأدباء المجلدين على عصور العربية كلها . ولكن

الحال التي كان فيها ، والعيش القلق الذي غمر حياته ، والسعي إلى الهجرة التي راودت فكرته ، والتنقل في الأسفار أوآخر سنه كلها حالت دون كماله ، ولكنه كان أديباً في موضوعاته الاجتماعية والسياسية والدينية ما في ذلك شك لا يجاريه في طرفها أديب لعصره أو كاتب لزمانه ، وفي النماذج التي نسوقها بعد قليل شاهد على ما نذهب إليه .

## ٦ - منزلة الكواكبي

يحتل الكواكبي في تاريخنا الحديث موقع الصدارة بين الكتاب المفكرين ، والزعماء المصلحين وعلماء الاجتماع ، وأرباب السياسة ، وقادة الفكر ، ورجال الدين ، وأدباء الخطبة والرواية والقصة . فقد كان قائداً من قواد النهضة ، وزعيماً من زعماء الإصلاح ، ووطنياً مخلصاً وعاملاً مناضلاً ، وعبقرياً نابغة . ولسنا نقول هذا بعد أن طوته السنون ، فقد قاله معاصروه من الأدباء والكتاب ، فعرفوا له مكانته ، وقدروا له عبقريته ، وذهلوا لتبوغه وبيانه وكتابته وبحوثه . فقال فيه صاحب « المنار » ، وهو يقرظ طبائع الاستبداد حين صدره : « حملت به فكرة عالم عامل ومحنك عاقل ، حلب الدهر شطريه وعرف ما له وما عليه ، ولما تمّ حمله وأراد الله أن يظهر في الوجود فضله وضعته تلك الفكرة الوقادة والقريجة النقادة في أرض الحرية من هذه البلاد المصرية »<sup>(١)</sup> وقال وهو يقرظ « أم القرى » : « هو كتاب لم يكتب مثله في الإصلاح الإسلامي فقد جمعت فيه آراء المصلحين بقلم حكيم من حكمائهم وعالم اجتماعي من أفضل علمائهم »<sup>(٢)</sup> . وقال فيه وهو يرثيه : « أُصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي ، وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠١ ، ١٠٥/٣ .

(٢) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٩٥٩/٤ .

البشرى»<sup>(١)</sup> ثم قال فيه : « كريم الأصل كبير العقل ، تربى أحسن تربية ، وتعلم أحسن تعليم ودخل في الأعمال المختلفة وتصدى للمشروعات المتعددة ، وكتب في أدق المسائل أحسن الكتابة ، وساح في البلاد ، واختبر أحوال الأمم حتى بلغ أشده واستوى»<sup>(٢)</sup> . ثم قال فيه : « رأيت عقلاً يتصرف هذا التصرف الذى يفوق فيه الحكماء والفلاسفة فى علم لم يأخذه بالتلقى ، وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها كيف يكون أثره لو تربى وتعلم فى مدارس منتظمة كمدارس أوربة الجامعة»<sup>(٣)</sup> . وقالت « مجلة الهلال » فيه : « وكان واسع الاطلاع فى تاريخ المشرق على العموم وتاريخ الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع فى علم العمران»<sup>(٤)</sup> . وقال الأستاذ الرئيس محمد كرد على فيه : « فالفقيه يعد من كبار رجال النهضة الحديثة فى هذه الديار»<sup>(٥)</sup> . وقال فيه الأستاذ إبراهيم سليم النجار : « فأعاد إلى الأذهان صوت فيلسوف المعرفة منذ تسعمئة سنة وقد خرج الصوتان فى حلب الشهباء فذهباً صُعداً فى الأفق وتركا دويماً فى جميع هذه الأجزاء»<sup>(٦)</sup> . وكتب الأستاذ أحمد أمين يوازن بين الكواكبي والأفغانى فقال : « كانت معالجة الأفغانى للمسائل معالجة ناثرة ، تخرج من فمه الأقوال ناراً حامية ومعالجة الكواكبي معالجة طبيب يفحص المرض فى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة ، الأفغانى غاضب والكواكبي مشفق ، الأفغانى داع إلى السيف ، والكواكبي داع إلى المدرسة»<sup>(٧)</sup> .

وهكذا وضع الكواكبي مع المعرى وابن خلدون ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى قرآن<sup>(٨)</sup> واحد ، فكان علماء من الأعلام ، وزعيماً فى زعماء الإسلام ، وكاتباً مفكراً عالماً اجتماعياً فى الطليعة من كتابنا ومفكرينا .

(١) رشيد رضا ، « مجلة المنار » ، ١٩٠٢ ، ٢٣٧/٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢٨٠/٥ . (٣) المصدر نفسه ٢٤٠/٥ .

(٤) « الهلال » ١٩٠٢ ، ٥٩٦/٢٩ . (٥) مجلة « المقتطف » ١٩٠٢ ، ٦٢٤/٢٧ .

(٦) مجلة « الحديث » ١٩٤٠ ، ٥/١٤ .

(٧) « زعماء الإصلاح » ، ص ٢٧٨ . (٨) القرن : المرقون بآخر .